سارتر أو ثمن الكلمات !

بقلم كلود روي

كانت له طريقة خاصة في ملء قدحه بالخمر ، وفي شد حزامه ، وفي ان يقول : « ونحن، الفروج المساكين ... » (١) : كان الجميع في الفرقة يعرفون ان الجندي جان بول سارتر انما كان اميرا ، مجندا باسم مستعار في « الفرقة » . ولكنهم كانوا يحترمون تنكره ، فكانوا يدعونه في سلام ، ويتركونه دائما في الصف الاخير عند المناداة على الاسماء او الدعوة للاستعراض ، وكان هو دائما اول من يأخذ النوبة لدى تغيب رفيق واول من يعطي اناءه لجاره . ولكن حدث يوما ان ارادوا اخراجه من الصفوف ، وان ينصبوه،هكذا بلا تمهيد ، مارشالا ، مع وسام ضخم وراتب من يحمل خمسة نجوم، وسرد لجميع سنوات الخدمة واستعراض عسكري عند « قوس النصر » لمنحه قبعته . وليتكم رأيتم كيف افرنقع ، شبيها بحمار وحشي ، ولم يقف الا لحظة قصيرة ريثما يقول لهم بكل لطف انه لم يكن يريد انيكون مارشالا ، لا في الادب ولا في اي شيء اخر ، وانما يريد انيكون مجرد انسان « انسان مصنوع من جميع الناس ، وهو يسواهم جميعا ، ويسواه اي واحد منهم » (٢) .

ومهما كان رفض سارتر لجائزة نوبل مدعوما باسباب معقولة ولطف في الاعتذار هو غاية الرقة ، فان هذا الرفض يذكرنا ببديهية اساسية : ان ثمن الكلمة لدى كاتب ، حتى ولو كان يكسب حيانه من قلمه، لا يمكن قط ان يحسب بكورونات نوبل ، او فرنكات غونكور ، او دولارات بوليتزر، او روبلات لنين . ان قيمة الكاتب الحقيقية هي التي يمكن اعطاؤه اياها حين نكون بعد في الوحل ، وحين يساعدنا بالكلمات ـ وهي كل ما يستطيع ان يعطي ـ على الخروج منه . ان هناك دائما لحظة يتساءل فيها مالرو ، في قاعات « متحفه » الخيالي ، اية لوحة تستطيع ان تصمد في جبهة قتال ، ويقرر فيها سارتر ان « الغثيان لا وزن له تجاه طفل يموت » . ان الجائزة الادبية الوحيدة التي اجدها غير قابلة حقا للنقاش هي التي اكتشفها صديق منفي ، على غير علم منه ، مع احد رفاقه ، صباح كل يوم في « بوشانوالد » : لقد كان الرجلان ينشدان الشعر في البرد . وكان في تلك القصائد ما يحفظانه عن ظهر قلب ، ولكنها كانت تبدو لهما مضحكة ، فيدعانها تسقط . وكانت ثمة قصائد تصمد . وذلك هو ثمن الكلمات .

واذن ! فقد كان سارتر على حق في الا يقبل جائزة نوبل ، ومع ذلك فقد كان سادة الاكاديمية السويدية على حق كذلك في ان يريدوا منحه اياها . لان جائزة نوبل الوحيدة التي تحمل قيمة ، تلك التي يمنحها انسان يعاني صعوبة كونه انسانا الى من ينقذه من ضيق او قلق ، او من اغراء جبن ، او من وسادة بذخ ـ ان هذه الجائزة قد منحت الى سارتر ملايين المرات من قبل الوف البشر في العالم .

وصحيح ان ما يصنع اكبر قدر من الخير ، ليس هو الكلمات الطيبة. وليس سارتر اخصائي الكلمة الطيبة ، ولا نموذج الكاتب الذي يضع يده على كتفك وهو يقول في شغف : « ان الامور ستسوى ، يا عزيزي » وليس هو كذلك من يريك ان السماء زرقاء ، وان الشمس تسطع ، وليس هو واحدا من اولئك النافخين في البوق الذي لا ينتهون من النفخ في بوقهم لاعلان ساعة « اليقظة » او ساعة « الاشمئزاز » . فان النص الاول الذي نشره سارتر،وهو في الثامنة عشرة ، في «المجلة التي لا عنوان لها » والتي اسسها مع « نيزان » في الصف الاعلى الثانوي ، بعنوان « ملاك المريض » يروي لنا قصة كاتب شديد التفاؤل وشديد الخوف من ان يصاب بالعدوى في غراميات مع امرأة مسلولة ، الى حد ان « يتزوج امرأة الزاسية ، شقراء ، متوردة ، بليدة ومكتملة الصحة . وقد كف عن الكتابة ، ومنح وهو في الخامسة والخمسين وسام جوقة الشرف الذي هو شهادة للبورجوازية غير مشكوك فيها » . وهكذا نرى ان سارتر يهرب ، وهو ما زال في الثامنة عشرة ، من السعادة ومن الوان التكريم . وفي السادسة والعشرين ، بعد ان كتب رواية بعنوان «هزيمة» لم يجد لها ناشرا ، نشر مقاله الثاني في « بيفور » ، وهو مقطع من كتاب رفضه الجميع واضاعه سارتر وهو بعنوان « خرافة الحقيقة » .

ولم يجد الكاتب في هذا الكتاب اسلوبه ، فاخذ اسلوب « الان » ولكنه كان يمتلك منذ ذلك الحين نواة جميع افكاره وهذا الغضب المليء بالطيبة الذي يزهد الناس بان يصدقوا بسرعة وان يؤملوا ببلادة . وهذه الاوراق الست عشرة شبيهة بعرض لنظرية سوف يعمقها سارتر طوال اربعة وثلاثين عاما . ويجد القارىء فيها اصل بسيكولوجيته عن المتخيل (« ان لافكار الانسان فعلا سحريا .. ») واصل مفهومه للطبيعة (« ان الطبيعة لا تقول نعم ولا تقول لا ») وللاطبيعة الانسان وحريته : (« انني حر في ان افكر بما اريد ») ولالحاده (« ان الخلود مفروغ منه ، ما دام خجل الانسان يمنعه من ان يرى بوضوح : فهو يعتقد انه يكتشف فقط ما يخترعه اختراعا ») . وكذلك نجد فيه ، عبر كلمات قليلة ، بدء فلسفة تنص على ان الوجود يسبق الجوهر : (« ان الحقيقة لا تولد اولا ») وبدء النزعة الماركسية (« ان الحقيقة تنطلق من التجارة : وقد رافقت الى السوق الحاجات الاولى المنوعة ») وعلم الكائنات السارتري (« ها هم اولاء البشر المجردون ، وحيدين مع اجسامهم ، ومحتقرين اجسامهم ») وسياسته الديموقراطية (« ان كل انسان يستطيع ان يحل محل انسان اخر ») وحتى الكفاح ضد الاستعمار : « تقولون ان الافريقيين يعانون من الاستعمار ؟ ولكن عجبا ، لو كان هذا صحيحا لتكلموا ، ولثاروا . والواقع ان بوسعكم ان تروهم في كل لحظة جادين هادئين . انهم اشد عقوقا من ان يتبادلوا علنا التهاني بحمايتنا ، ولكنهم لا يقولون شيئا ، مما يجعل الامرين سواء.»

في عام ١٩٢٣ رفض سارتر وسام « جوقة الشرف » ، وفي عام ١٩٣١ رفض الخلود والقيم الخالدة ، ورفض ان يرى الحياة بلون زاهر ، وان يرى الانسان هادئا وان يقبل بشرا يضطهدهم البشر . ولم يكن ليمنرفا الصبية الديموقراطية القابلة للموت والتي كانت تخرج كاملة السلاح من ذلك الرأس غير الجميل ، ولكن المصنوع باتقان ـ لم يكن لها مما تعد به اشباهها الا ما كان تشرشل يعد به الانكليز عام ٤٠ : « من العرق والدم والدموع » .

لقد عاد كبير ابنائي من الليسيه وهو يقول :

ـ هل تعلم اننا قررنا ان سارتر هو اجدر الناس بالاعجاب ؟

كان سارتر يطلب اولا الا يؤمن الناس بابا نويل . فهو ليس اذن

---

(١) « كان اليسار قد دخل هذا الاحتضار الذي لا يلتوي ، وكنا نحن الفروج المساكين نجده في صحة جيدة . » (اوضاع ، الجزء الرابع) .

(٢) العبارة الاخيرة في سيرته الذاتية : « الكلمات » .

بابا نويل ، ولكنه من يضع البشر فيه اعظم ثقتهم ، انه سقراطنا الذي لا يقطع السم كلامه ، لانه رضعه من ثدي امه « الطبيعة » ، فاصبح منذ ذلك الحين معتادا على السم ، وعود الناس عليه . وسعداء هم الشبان الذين سيشربون في الصباح هذه القهوة السوداء المرة ، القوية ، التي تبث الشجاعة والجراة : « الجدار » ، « الغثيان » ، « الوجود والعدم » ، « جلسة سرية » ، « القديس جينيه » ، « الكلمات » .

لقد انقضى ربع قرن وآباء الحقائق الموضوعة ، المحترمون الهادئون يتهمون سارتر ، في غير هوادة ، بانه مسمم : يتهمه اليسوعيون بانه ملحد ، واتباع « كانابا » بانه جرذ دبق ، وامثال سيسيل سان ـ لوران بانه جاد ، وحواريو جاك هودار بانه متناقض ، ويتهمه اليسار بانه يميني ، واليمينيون بانه يساري . انه دائما في موقف خطر لان له ذهنا مستقيما . والواقع ان سارتر قد عاش وضع الحي كما صوره : وضع كائن بلا قيمة لا يستطيع ان يعيش بلا قيم ، وضع مهزلة يجب ان تمثل تمثيلا جيدا جدا الى حدان تبلغ اخيرا الصدق والاخلاص ، وضع عاطفة مهووسة (ولكن غير مجدية) تتطلب المطلق (ولكنها تعرفه نسبيا) .ولقد وسع بعبقريته فنومنولوجية عالم قليل الاغراء بالالزام ، مضيفا الى ذلك بان على المرء ان يلتزم ، وانتهى الى القول بان الامر سواء ،فلسفيا، « ان يسكر المرء متوحدا او ان يقود الشعوب » ، وارتمى في الوقت نفسه في المعركة من اجل الشعوب ، وشرح في دقة ضارية لماذا « الحب في جوهره خدعة ورد الى اللانهاية » ولكن من اجله هو ، استطاعت أمرأة ان تكتب اجمل كلمات الحب العصرية : « كنت اعرف ان اية مصيبة لن تأتيني ابدا منه ، الا ان يموت قبلي . »

ولم يكف عن ان يشرح لنا اننا كنا معتقلين متشبثين بالمستحيل ، وانه لم يكن ثمة مخرج نختاره ، وانه ينبغي اذن ان نخترع مخرجا اخر . وحين كان يوكد نفسه ماركسيا ولكنه كان يهدم بلا هوادة نظرية «الانعكاس» وحين كان يقول ويثبت للشيوعيين انه كان معهم ، ولكنه يمتنع عن الترديد معهم بانه لم يكن في الاتحاد السوفياتي معسكرات اعتقال ، وحين يقول ، فيما هو يمضي في تأليف كتب في عالم متسمم بان « الادب ، كالاخلاق ، في حاجة الى ان يكون عالميا » ، فانه لا يدلل بان فكره فكر متناقض ، لان كل اثاره كفيلسوف وكاتب تقوم على بدهية : تناقض الفكر الذي هو ما ليس هو ، وليس هو ما هو .

وسارتر الذي يملك ذكاء صابرا ونكتة حية ، هو دائما اول من يضحك حين اذكره بالتناقضات الظاهرة في علاقاتنا الشخصية : حين اسمعه ، عام ١٩٤٣ ، في اثناء احدى المناقشات ، ينصح بعدم مزج ادب النضال بالصراع المسلح ، وينصح الكتاب المقاومين بالا يعتبروا انفسهم « جنودا صفارا » بحجة انهم يكتبون « مقالات ملتزمة » ثم يقترح علينا يوم ٢٠ اب ١٩٤٤ ،بان نجند في ثورة باريس « ميليشيا وطنية من الكتاب » (وقد أعترضت بان كل كاتب يود ان يكون في هذه الميليشيا كولونيلا على الاقل) . وحين صاح بي ، ليل ٨ اب ١٩٥٦ ، بعد عشاء تناولناه في «دلف» وناقشنا طوال السهرة قضية استحالة ان يكون احدنا شيوعيا واستحالة الا يكون شيوعيا ، صاح بي من تحت شجر الزيتون : « حاول خصوصا الا تجعلهم يطردوننا ! » وحين تلفن لي صباح ٥ تشرين الثاني التالي ليطلعني على البيان بشأن تدخل الروس في المجر ويطلب مني ان اوقع البيان ، فوقعته ، ثم صرح بعد ثلاثة ايام انه لن يجلس بعد اليوم ابدا ، طيلة حياته ، على طاولة واحدة مع كاتب سوفياتي ، ثم اجده بعد عامين مع اهرنبورغ ، ثم يدعوني منذ بضعة اشهر الى قضاء السهرة معافتوشنكو وفوزنسنسكي .

لا شك في ان التناقض هو غالبا حركة الحقيقة الاكثر فعالية الى الحقيقة ، وان الحبل الصلب هو غالبا الدرب الوحيد الذي يسمح بالانتقال من هوة الى هوة . وينبغي الا نعترف فقط بان سارتر قد اضطلع في شجاعة بتناقض جنسنا وتناقض زمننا ، بل اود كذلك ان امدحه مدحا سلبيا ، ولكنه صادق : فهو واحد من اندر الرجال الذين لم ارهم قط يقولون او يكتبون حماقات او خبائث الا بدافع من غضب . وليس قط بحساب وتدبير . وهو حين يظن أن ما يحبه قد اهين ، سواء كان فكرة ام كائنا ام مبدأ ، فهو جدير بان يعمد الى الطعن بالخنجر ، وان يصبح متوحشا حقيقيا . اما حين يريد ان يكون خبيثا ، محتالا ، سياسيا كبيرا ، فانما يكون كذلك دائما بدافع من سخاء ، وباكبر قدر من الخرق والارتباك : قارنوا مثلا السطور الخمسة عشر التي رثى بها موريس توريز ، والصفحات الخمس عشرة التي كتبها عن موت تولياتي . انه لصحيح ما قاله في واحدة من الصيغ المسطحة النادرة ، المسطحة كما تكون البديهيات : « أن وظيفة الكاتب هي ان يسمي القطة قطة » .

لقد احببت أن تكون جائزة نوبل هذه المرفوضة ، والتي كانوا سيؤاخذونه لو قبلها ، والتي يؤاخذونه كذلك لانه رفضها ، قد وضعت سارتر مرة اخرى في موقف الخطر . واني احب روح النكتة السارترية التي تهمس في اذان منفذي وصية مخترع الديناميت بفكرة مكافأة الكاتب العالمي الوحيد الذي يمنع الناس من اليأس من الاشتراكية ، فيما هو يتهم ، وفق عبارته الشهيرة « بانه يثبط بيلانكور » . لم يكن ثمة مخرج لسارتر : فاخترع مخرجا.

لقد كتب في اخر « الكلمات » : « اننا جميعا متشابهون في مهنتنا: كلنا محكومون بالاشغال الشاقة ، وكلنا موشومون » . وقد علمنا ايضا اننا كلنا متشابهون في مهنتنا كبشر ، واننا لسنا وحيدين في كون كل منا وحيدا ، وان علينا ان نكون من اجل جميع الاخرين . ويقول سارتر انه اختار دائما ان ينسب لنفسه الخطأ ، وهو يصف نفسه بانه ابن زنى ، وانه خائن ، وانه جرذ دبق . « لانني لم احب نفسي بما فيه الكفاية ، فررت الى امام ، وكانت النتيجة انني ازددت كرها لنفسي » . هذا ممكن . ولكن النتيجة هي اني اعتقد ان ثمة كثيرين من الشبان ، على غرار ابني ، يعتقدون ان سارتر « هو اجدر الناس بالاعجاب » . وهو في نظرنا نحن اندر الرجال العظماء ، وهو بلا شك اعظم العظماء : وليس هو معلما ، ولا ساحرا ، ولا صديقا ، ولا رفيقا ، وانما هو بين الكتاب الاحياء ذلك الذي نود لو نستطيع ان نعيد اختراع الكلمة الاكثر ازعاجا في اللغة الفرنسية ، وان نقول : انه اخ .

كلود روي

ترجمة « الاداب »

صدر حديثا :

لا بحر في بيروت..

بقلم

غادة السمان

المجموعة الثانية لقصاصة فرضت نفسها بقوة منذ قصتها الاولى

الثمن ٢٥٠ قرشا لبنانيا — دار الاداب